الحكمة في شعر المتنبي

أ . د عبد اللاه محمود حسن

المتنبي :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين ...

أوشكت أن استرسل فيما دأب الكتاب علي التعرض له، حينما يشرعون في التصدي لموضوع يرتبط بالمنشيء ، ولكن سريعا ما أحجمت ، فقد أدركت أنني لا أستطيع أن أضيف جديدا علي اسمه ولقبه وأسرته والبيئة التي نشأ فيها والعوامل التي كونت شخصيته وشاعريته ، فكل ذلك تصدى له الكاتبون : قديما وحديثا ولم يتركوا فيه زيادة لمستزيد ، بل إن الشهرة والذيوع اللذين نالهما المتنبي جعلته غير مجهول عند العامة ، والإبهار الذي خلفه نتاجُه الفني حمل الخاصة على التنقيب والبحث وراء كل خفي متوار وقدموه في وضح النهار ، فأصبح المتنبي علما فذا يعيش في ضوء المعرفة وإن اختلفت العصور والبيئات فهو منذ ظهوره شغل الناس بأمره ، كثر حاسدوه ، وكثر أيضا المتعاطفون معه ، وعاش هو لاهيا عن هؤلاء وأولئك ، حيث قال :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصمُ(١)

فهو في شغل عنهم جميعا بالهدف الذي رصده لنفسه ، والإ ربة التي يريد بلوغها ، فقد كان منذ نشأته الأولي بعيد الآمال ، كبير المطامع ، وقد وجد الدولة العباسية نهبا مقسما ، فاجتذب إليه

(١) الديوان المجلد الثاني / ١٢٠٠

كثيرا من سكان بادية السماوة - التي قضى فيها حينا غير قصير جذب هؤلاء بسحر بيانه وقوة عارضته ، ودعاهم الي مبايعته علي حداثته وغضاضه عوده ، وقد وصل الخبر إلي والي حمص فسجنه وقيده ، ويجب التنوية إلي أن أهل هذا العصر قويت الأثرة فيهم وامحي الإيثار عندهم وتسلطت عليهم الأنانية الفردية ، فجعلت كل واحد فيهم إذا آنس من نفسه القدرة علي بلوغ الأرب الذي صاغ له في خياله قصورا من الآمال باذخات الذرى ، فإنه حينئذ يخدع مَن معه أو ينخدع بهم حين يجدهم قد التفوا حوله وأحس منهم الانصياع ، واستكمل بهم القوة ، فينطح بهم صخرة السلطة لعله يوهنها وإن كان في الأغلب الأعم يتحطم هو ويتفرق من حوله بددا

فهذه الجماعات التي ثارت مع (بابك الخرمي) أو مع صاحب الزنج أو مع دعاة القرامطة تكشف لنا ما نحن بإزائه من اضطراب العصر وضعف القائمين عليه من الحكام والإغراءات التي تدفع الطامعين إلي ارتياد طريق التمرد والثورة لعلهم يحققون من وراء ، ذلك مغنما ، ولعل ذلك كان الحافز الأكبر الذي دفع المتنبي دفعا ملحا نحو أمل خئون أراده أن يتحقق ، فلم يجن منه سوى السجن والعذاب ، وله العذر فيما فعل ، فعلى مقربة منه ، ملك عظيم ينقضن ، وسلطان هائل ينهار ، وقوم يتهالكون علي فتات ذلك الملك وأنقاض هذا السلطان ، فإذا ولد في هذه البيئة صبي ذكي القلب مرهف الحس ، رقيق المزاج ، حاد الشعور ، ملتهب العاطفة ، قوي

الخيال ، كان من الطبيعي أن يسير السيرة التي تكون منه هـذا الشخص الذي يعرف بالمتنبي [١] وأن يكون له طموح لا يقل عن طموح أنداده أو الذين سمع عنهم وبهرته فعالهم فهو لايقل عنهم ذكاء ولا شجاعة ولا قوة أسر ـ فهو القائل يخاطب نفسه :

إلي أي حين أنت في زيّ محرم وحتي متي في شقوة وإلي كم ؟
وإلا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاسِ الذل غير مكرم [٢]

فثب واثقا بالله وثبة ماجد يرىالموتتفي الهيجا جني النحلفي الفم

إنه يريد أن ينضو عنه زي الإحرام الذي يفرض عليه حياة السلامة والدعة ، ولعلك تلاحظ الضيق والتبرم الذي لحقه من جراء هذا الثوب الذي يتلفع به والذي أوشك أن يخنقه ، ويحاول أن يمزقه في عصبية بادية وثورة غير مقنعة ، فهو لا يريد أن يعيش خاملا مع الخاملين أو نكرة تائهة وسط النكرات التي تعج بها الحياة من حوله ، ولذلك استطال الزمان الذي أقعده عن مراده ، وحال دون بلوغه إربته ، حتي برم بواقعه وتمرد عليه ، فتتوالي عنده الاستفهامات القلقة التي تكشف عن كم هائل من التعاسة والرفض لهذا الواقع الشقي : إلي أي حين ؟ وحتي متي ؟ فهو يستحث الزمن ويتملصن منه ، ويدفع نفسه دفعا إلي المخاطرة للتخلص مما هو فيه ، إنه يغريها بالمغامرة ، ويحبب إليها الموت حتي تقتحمه بلا وجل ، الموت تحت السيوف أكرم للإنسان وأفضل من أن يموت حتف أنفه مستسلما للذل والمهانة ، فالموت نهاية محتومة لكل كائن حي ، ولكن فرق بين من خنع للذل ومات موصوما بهذا العار ، ومن حارب مدافعا عن

(١) د/ طه حسين ـ مع المتنبي صـ ٣٢ ـ ٣٣
(٢) الديوان ، المجلد الأول / ١٠٠

كرامته وعزته فمات تحت السيوف ، وفي ساحة الوغي ، وهو كلام علي إطلاقه يستحث الهمم ويحيي موات الأنفة والكبرياء ، فكان سريع الإقناع له وهو ، ولن يهمه من عداه ، لذلك جاء بيته الأخير دليل الثقة والاطمئنان إلي ما أحدثه تحريضه من أثر ،فيطلب من شخصه الثورة ، والوثوب علي السلطة واثقا بالله ، أنه ناصره مادام يستعذب الموت ويجده أحلي من الشهد في فمه ..

فالمتنبي كما تحدثنا هذه الأبيات شجاع مقدام ، صاحب هدف يريد تحقيقه ولو مات في سبيل الوصول إليه ، ويقول د/ طه حسين تعليقا علي البيت الأخير : (فهو لايريد بهذا الوثوب إلاالخروج علي السلطان ، وشق عصا الطاعة ، والمخالفة عما يأمر به النظام والعرف (١) وانتهي به الأمر إلي السجن الذي كان له أكبر الأثر في هدهدة غلواء هذا الشاعر وتهافته علي الجاه والسلطة حتي أوشك هذا الحماس أن يورده موارد العطب ، فقد كان شديد الإحساس بذاته ، دائم الإثبات لها ، رافضا لكل ما عداها ،رافضا للدين والسلطان ، لا يري سوي الطريق المفضي به إلي الهدف حتي لو حف بالمكاره والأخطار ،؛ لذلك كان السجن نعمة عليه ، فقد أتاح له فرصة المراجعة والعدول عن وهم سيطر عليه وأغراه بما لاحق له فيه ، ففكر وتدبر وأنكر واستقبل أمره في أناة واطمئنان ومن ثم اعتذر لحاكم حمص ، وألح لكي ينال العفو في قصائد نختار منها هذه الأبيات :-

بيدي أيها الأمير الأريـــب لا لشيء إلا لأني غريـــــب
أو لأم لهـا إذا ذكرتنـــي دم قلب بدمـع عيـن يـــذوب
إن أكن قبل أن رأيتك أخطأ ت فإني علي يديك أتـــوب
عائب عابني لديك ومنـــه خُلقت في ذوي العيوب العيـــوبُ (١)

فهو نادم تائب . يستعطف الأمير بذلة لعله ينال منه العفـــو والغفران ، ويعرض عليه في استكانة وخنوع ما آل إليه حاله ، مـــن غربة منقطعة أوشكت أن تعرضه للبوار والتلف بعيدا عن الأهـــل والصحبة ، مما جعله ضعيفـا مقهورا لا يملك من أمر نفسه شيئا فمـن أجل ذلك وبدافع الإشفاق علي جَدّته تلك العجوز التي إن ذكرتـــه وأدركت ما هو فيه من قيد وتضييق لتصدع الصبر ، وتفجر الدم مـــن قلب واهن متهالك ، ليختلط بدمع عين قرحها السهد وأوجعتها اللهفة المرتاعة علي الغالي الحبيس . الذي تسبب لنفسه بهذا المصير المر فهو استعطف واعترف بالخطأ الذي ارتكبه علي جهل بالأميــــر وعدم دراية بقدره وقدرته ، ثم يعلن توبته علي يد الأمير لعله يقبل ويصفح ، خاصـة وهو قد أخـذ بوشاية الواشين الذين كانوا قد نقلـوا إليه بعض أقواله ولم يؤخـذ بعمل يسلكه في عداد الثائرين المنقضين علي الحكم ..

وله أيضا هذه الأبيات :

تُعجّل فيّ وجوب الحـــدود وحدي قبيل وجوب السجـــــود
فما لك تقبـل زور الكـلام وقدر الشهادة قـدر الشهـــــود

---

(١) الصبح المبني / ٥٩

وكن فارقا بين دعوي أردت ودعوي فعلت بشأو بعيد (١)

فهو يدعي ألا يقام عليه الحد لأنه لم يبلغ الحلم بعد ، حيث لا تجب عليه الصلاة ، وإن كان في ذلك مبالغا ، فقد ثبت أنه كان في الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين آنئذ ، وعلي أية حال فإنه يريد النجاة بنفسه من أي سبيل ، فهو صغير والذي وصل الأمير زور وبهتان ما كان للأمير أن يقبله ، وإن قبله فالدعوى باطلة تتعلق بالإرادة ، ولا تتعلق بالفعل وشتان ما بين التهمتين فالإنسان يحاسب علي ما يفعل لا علي ما يريد ، والشاعر في هذه الأبيات أيضا ذليل ضارع يستعطف ، منكر للذنب أشد الإنكار ويبدو ان حاكم حمص تأثر بما وجهه إليه الشاعر من استعطاف وندم وتوبة ، فأطلق سراحه ..

ولما خرج من السجن هام علي وجهه في البلاد يجتدي بشعره ويمتدح من لاقاه عَظُم أو حَقُر ، حتي إنه مدح علي بن منصور الحاجب بقصيدة من غرر قصائده ، فأجازه عليها بدينار واحد ، فسميت القصيدة بالدينارية ..

ومازال يتقلب في جنبات البلاد حتي اتصل بأبي العشائر ، وكان سيف الدولة قدم انطاكية ، وأبو العشائر بها ، فقدمه إليه وعرفه منزلته من الشعر والأدب ، ويقال : إن المتنبي اشترط علي سيف الدولة أول اتصاله به أنه لا ينشده إلا وهو جالس ، ولا يكلف تقبيل الأرض بين يديه ، مما يدل علي أنه لم يبرأ من غروره وأنه

(١) الديوان صـ ١٦٣ ـ ١٦٤ من المجلد الأول ....

مازال يرفع نفسه فوق هؤلاء الحاكمين ، ومن عجب أن يدخل سيف الدولة تحت شرطه ، حتي حدثت الجفوة بينهما ، فترك المتنبي سيف الدولة ، ورحل الي دمشق ، ثم زين له أحد أتباع كافور أن ، يرحل إليه فاتجه إلي مصر يجذبه الطمع ، ويصده الكبر ، أن يتدلي إلي مدح الأسود .

وبذل المتنبي ماء وجهه رخيصا في التزلف إلي كافور والاحتيال علي أن يقلده منصبا وكانت كل قصيدة من قصائده فيه تنتهي بالشكوى والالحاح ، ولما رأي أنه لم يظفر من كافور بطائل عزم علي الفرار فأعد له عدته ، وهجاه قبل مغادرة مصر بيوم واحد بقصيدته المشهورة التي مطلعها :-

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضي أم لأمر فيك تجديد (١)

وهو وإن كان قد أسرف في النعوت المخزية التي ألحقها بكافور فذلك نابع من شعور بالاشمئزاز والخزي من نفسه قبل أن يكون من كافور ، فهو لو أحسن الظن بنفسه ، وتيقن حقيقة كافور لأحجم عن قصده ، وما أغراه طمع أحمق ، لازمه طوال حياته حتي قتل نفسه ، ولم يبق منها إلا رمق ضئيل (بهذا الرمق الذليل الخصب ، المهين القوي أقبل المتنبي علي كافور ، فمدحه وتملقه ، ورغب إليه وطمع فيه ، ومن هذا الرمق نفسه انصرف المتنبي عن كافور راغبا عنه ، زاهدا فيه ، هاجيا له ، كافرا بأنعمه ، مشيعا فيه الفحشاء ، مذيعا فيه السوء ، وذنب كافور أنه عرف المتنبي كما كان ينبغي أن

(١) راجع الديوان مجلد ثان / ٣٩٦

يعرف ، ووضعه في الموضع الذي كان ينبغي أن يوضع فيه ، رآه شاعرا يبيع المدح والثناء بالدراهم والدنانير ، فاشتري منه المدح والثناء بالدراهم والدنانير ، ورآه أحمق يجهل قدر نفسه ...... ووفق كافور لكل ما أراد ، فذنب كافور إذن أنه كان عاقلا فطنا لبيبا لم يخدعه المتنبي وما كان للمتنبي ولا لأبرع منه أن يخدع هذا الأسود الذميم الذي استطاع أن يتجاوز قدره وأن يفرض نفسه علي الدولة الإسلامية كلها ، وأن يقتطع أحسن أجزائها ، فيستأثر فيه بالملك والسلطان ، نعم ذنب كافور أنه كان عاقلا فطنا ، وأنه كان يحسن العلم بالناس ، ويضع الأمور في مواضعها (١) ...

وهكذا عرضته المطامع لمواقف فقد فيها ماء وجهه وأضاع كبرياءه الذي عاش عمره يحاول الحفاظ عليه بغرور وصلف ليس له نظير ، عرضه في النهاية للموت ، ولما فر أبو الطيب من مصر قصد إلي الكوفة ، ثم رحل إلي بغداد ، وترفع عن مدح الوزير المهلبي ذهابا بنفسه عن مدح غير الملوك ، ثم راسله ابن العميد من (ارّجان) فسار إليه ومدحه بقصائد عدة ، ثم اتصل بعضد الدولة (بشيراز) وقد مر في أثناء سيره إليه ، بشعب بوان فوصفه بقصيدة من فرائد الشعر وبدائعه ، ثم ودعه بقصيدة كئيبة ، أكثر فيها من التشاوم علي نفسه كأنه كان يحس دنو أجله ، وكان الأمر كذلك فإنه قتل في الطريق بعد ارتحاله من شيراز ، بضيعة تقترب من (دير العاقول) لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ

(١) د/ طه حسين مع المتنبي صـ ٢٨٧

والذي تولي قتله وقتل ابنه وغلامه رجل من بني أسد يقال له (فاتك بن أبي جهل) لأنه هجا ابن اخته هجاء أفحش فيه)[١]

ولقد أراد المتنبي أن يفر من الموت الذي أحدق به ، غير أن غلامه عيره ، وذكره ببيته المشهور :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فكر راجعا لحتفه وحتف ابنه وغلامه ذاك سليط اللسان ، والحق إن المتنبي لم يكن جبانا ، بل هو شجاع مقدام ، حضر أكثر مواقع سيف الدولة ، وواجه الموت في أسفاره الكثيرة ، ثابت القلب رابط الجأش ، ولكنه كان كثير الإعجاب بنفسه بعيد المطامح ، يخشي أن يقال عنه أحجم ولو كان الموت هو الذي يناوشه ، ومن ثم فقد حياته ، حتي لا يعتذر لغلامه لو فر وولي الأدبار .

وهكذا انطوت حياته الحافلة بالمرارة والنصب ، لأنه شغل نفسه بما لم يستطع إدراكه فكان كما قال :ـ

أذاقني زمني بلوي شرقت بها لو ذاقها لبكي ما عاش وانتحبا[٢]

فلقد أذاقه الزمان اللأواء وجرعه الصاب ، لو أن الزمان رشف من تلك الكأس التي سقي منها المتنبي لما تحمل مرارتها ولانخرط في البكاء من شدة الألم ما بقي من عمره ، ولظل ينتحب لتعاظم البلاي عليه يوما بعد يوم .

وهكذا أهلته تلك الأخطار والمواجع لأن يكون عميق النظرة كثير الخبرة ، ملما بالحياة والناس وانعكس كل ذلك علي شعره

---

(١) الأستاذ / علي الجارم وعبد العزيز البشري وآخرون ـ تاريخ الأدب العربي صـ ٩٨

(٢) الديوان المجلد الأول / ٢٣٠ .....

حتي نال شهرة واسعة ، مازال يتردد صداها حتي الآن ، لأنه يدل علي قدرته الشعرية الباهرة وتبوغه النادر ، وقد مرت القرون وتعاقبت السنون ولا زال شعره مضرب المثل في القوة والبلاغة .

وقد قال المتنبي في فنون كثيرة من الشعر ، وفي المديح ، لأنه كان شاعرا مداحا يجتدي بشعره ، وقال في الهجاء ، وأكثر هجائه لكافور صاحب مصر ، وقال في الرثاء وفي الوصف ، فقد وصف كثيرا من وقائع سيف الدولة ، ووصف الأسد في قصيدة يمدح بها بدر بن عمار ، ووصف رحلة صيد ، ووصف الحمي حينما أصيب بها في مصر فأحسن وأجاد ، وله شعر كثير في الفخر والشكوي من الزمان ، ولكن أكثر ما أشتهر به الحكمة وإرسال المثل ، وذلك لأن الحياة التي تقلب فيها علمته الحكمة وجعلته يحذقها .

ونحن لن نعرض لشعر المدح عنده ، فهو مع روعته ، وكثرة تفننه وعظمة الإبداع فيه إلا أن شاعرنا متهم فيما قال ، نظرا إلي ما اتسم به من حبه لذاته وعدم إقراره بالتفوق لغيره ، مهما كانت منزلته الاجتماعية ، فرجسيته حالت بينه وبين أن يري أحدا يستأهل منه كلمة ثناء عن اقتناع وصدق ، وعلي هذا نشعرأن المديح عنده بضاعة يقدمها لمن يدفع ، والدليل قصيدته الديناييرية ، ومدائحه في كافور الذي قهر نفسه قهرا علي قولها ، وليس أدل علي ذلك من قوله مطلع أول قصيدة مدح قالها في كافور ، الذي أكرم وفادته ، وأمر له بمنزل خاص وخلع عليه ، وحمل إليه آلافا من الدراهم كما يقول الرواة ، فلم تكن خبيئة نفس كافور قد تكشفت بعد ولا صرفه

اليأس منه ، وإنما هو الأمل الذي ساقه إلي كافور مازال جياشـــا عارما يملأ قلبه بالتفاؤل والترقب هو الذي يملي عليه قصيـــدة المدح الأولي ، ومع ذلك لم يستطع توشية السخط المقهور ، ولا تمويه الغل والحقد والحسد الذي في داخله بل فضحته كلماته ، انظر إلي مطلع أول قصيدة واجه بها كافورا الذي تعلقت به آماله :-

كفي بك داء أن تري الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا (١)

أرأيت عنفا عنيفا يواجه به المتنبي ممدوحه فوق هذا البيت فالاعتذار بأن الشاعر يخاطب نفسه لا يمحو ما خلفته كاف الخطاب من إهانـة لم يقصدها الشاعر حقا في بدء المعرفة وأول لقاء ، ولكنها تنم عـن البركان المتفجر داخله بحمم الغيظ ، فهو عاش حياته لا يريد أن يذعن لمخلوق ، فكيف به يري ممدوحه الأسود علي غير ما وقر فـي وجدانه ومشاعره من استخفاف بأمره واستهانة بمكانته وتحقير لقدره وإن علا بل ومطلوب منه أن يبالغ في رفعة هذا العبد وأن يعلي مـن شأنه ليحصل علي مبتغاه ، إنه قدر عنيد لا يريد أن يهادنه ، وهـا هو يرميه بكل كبيرة في تتابع وإحكام ، كأن له ثأرا عنده ، لايتركه يهنأ إلا ريثما يلقيه في شر أبشع من سابقه ضراوة ، فهو رزأه فـي صداقته بسيف الدولة والآن يناوئه برزء جديد يعد له عند كافور لذا رأي في الموت الداء الشافي الذي يريحه من رحلة الحياة الفاشلة ومن عناد القدر الذي لا يريـد أن يلين له ..

هذا ما باح به عقله المستكن ، علي الرغم من أن كثيرا من النقـاد أفهمونا أنه ساخط علي الواشين الذين أفسدوا ما بينه وبين سيـف

(١) الديوان المجلد الثاني / ٢٩٤

الدولة من وداد حنون ، فانخدع فيهم فأقصاه عنه ، لذا فهو يَـــرِمُ بالواشين والصديق جميعا ،ولكنا نري أن الأمر علي خلاف ذلـــك فالصلات والعطايا والمنح التي أغدقها عليه سيف الدولة ـ كان مـــن الممكن أن تعيشه حياة رغدة هانئة لو انزوى فى ضيعته ، وتفـــرغ لقول الشعر فنا يلاعب به مشاعره ، ويتنفسه صدقـا مع خواطـــره وأحاسيسه ، فهـو لم يكن شاعرا خاملا أظهره سيف الدولة ، فقـــد كانت أصداء مجده الشعري تتردد في كل الدنيا قبل لقائه بأميـره وبعده حتي اليوم .

إذن فهو ليس آسفا علي هذه القطيعة التي أحكم فتلها أعـــداوه وحاسدوه ، والإ ما توجه إلي أعداء سيف الدولة في مصر ، ولعـــاش علي أمل العودة ورأب الصدع ما وجـد إلي ذلك سبيلا ، هذا إن كان صادقا في حزنه علي من فارقهم ، ولكن الدكتور طه حسين يحدثنـــا قائلا :

(فأما الذي أرجحـه أنا فهو أن المتنبي قد أصلح أمره مـــع المصريين ، وترك حلب ليكون شاعرا رسميا لكافور ، ليغيظ سيـف الدولة وأصحابه ، وليعرفهم أنه إن لم يجـد عندهم الأمن والرضـــا ، فسيجـد عند عدوهم اكثر من الأمن والرضا : سيجد عند عدوهم الحكم والسلطان) [١] وإنسان هذه حاله لن يكون برما ولا ضيقا بالقطيعة ولن تملأ نفسه هذه الوجيعة القاصمة التي تبدت من بيته الذي افتتح به قصيدة المديـح وأن تخفي في أبيات بعده تومئ إلي نعيـــه الصداقة والأصدقاء ، فهـو لا يرمضه في الدنيا بأسرها شيء سوي أن

(١) د/ طه حسين مع المتنبي / ٢٧٧

يخيب مسعاه ، وأن يحال بينه وبين ما يريد ، فتقهقره عن مكان الصدارة لدي سيف الدولة ، وفشله في أن يكون الأثير المقدم حتى علي ابن عم سيف الدولة ، أبي فراس الذي زاحمه وأقصاه بشعره وفروسيته وقرابته للأمير هو الذي أهمه . فالمتنبي الذي كان مهددا في حياته ، وراوغ حتي نجا من الموت هربا ، لا يمكن أن يأسي علي ما خلف وراءه في حلب إذ تطلع في رحلته إلي ما هو أروع وأعظم وأبقي ، فإذا كان هذا شأنه مع الأحداث التي ألمت فلابد أن يكون مملوءا بالبهجة والسعادة في ارتقاب أن يحصل علي ما أمله في مصر فهو يرغب في الملك ويطمع إليه ، وقد ظن أن نبوغه في الشعر وكثرة مدحه لكافور ، يوصلانه إلي أمله ، فيغيظ حساده الذين كادوا له عند سيف الدولة ، ويريهم أنه أصبح في مكانة تشبه مكانة أميرهم وأن في استطاعته أن ينشيء بلاطا كبلاطه ، ويصبح موئل الشعراء والعلماء والقصاد) (١)

كل هذه الآمال العراض ، والتي لو أنصف المتنبي نفسه لعدها من شطحات الخيال والتي نأت عن الواقع ولا يمكن أ ن تدانيه، فعلي قدر إغرابها وتغريبها يكون التمتع بها والإسعاد لصاحبها وعلي ذلك قلنا : إنه لم يكن منجوعا في الصداقة ، فالطموح المغالي فيه والذي لازمه في رحلته إلي مصر كان علي الأقل يسعده قبل أن يملأه اليأس من كافور ، هذه هي طبائع الناس ، أما أن يفاجئنا المتنبي بكل هذه التعاسة المرة في موقف أدناه من أمله الموهوم ، وقربه من التشفي

---

(١) د / أحمد بدوى ـ من النقد والأدب / ٥٤

فيمن أساءوا إليه ، فتلك عجيبة لابد أن يكون مردها دنيا من المشاعر المهتاجة ، لا يريد لها أن تبين ، بل هو يخاف أن تبين ، فظهورها يقبره ، قبل أن يقبر أمانيه ، فهذا الموقف المهين الذي أقحمه فيه القدر عرضه لذل دونه الموت ، ثقيل علي نفسه ، أن يمدح العبد الأسود ويستجدبه ، لذلك فارت نفسه بمواجعها ،ونضح بها بيته السابق (أقبل المتنبي إذن علي كافور وضيعا ذليلا قد هان علي نفسه . فهانت نفسه علي الناس ..... فللناحظ الآن أنه لم يصف أحدا كما وصف نفسه حين قال أيضا :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام (١)

تلك قضيته : سَعيٌ وراء الملك والسلطان وفَشَلٌ في بلوغ مسعاه يورثه الهم والتعاسة ، ولعل فشله ذاك راجع إلي صفات غالي فيها ولم يكن متلبسا بها علي الحقيقة قد رفع نفسه فوق قدرها ، وزعم لها ما ليس من أخلاقها ، وطمع فيما لا ينبغي لمثله ، أن يطمع فيه ، ظن نفسه حرا ، ولم يكن الا عبدا للمال ، وظن نفسه أبيا ولم يكن إلا ذليلا للسلطان وظن نفسه صاحب رأي ومذهب ، ولم يكن إلا صاحب تهالك علي المنافع العاجلة التي كان يتهالك عليها أيسر الناس أمرا وأهونهم شأنا) (٢)

فلم يكن المتنبي صادقا في مديحه ، ولا مخلصا فيما خلعه علي كافور من صفات ، وليس أدل علي ذلك من تكذيبه نفسه فيما ادعاه ، حين قال :ـ

وشعرٌ مدحت به الكركدن (٣) بين القريض وبين الرقي

---

(١) د/ طه حسين ـ مع المتنبي / ٢٨٦ (٢) المرجع السابق / ٢٨٥
(٣) د/ أحمد بدوي ـ من النقد والأدب / ٧٠

فما كان ذلك مدحا له ولكنه كان هجو الدورى وليس أقوي من شعر المتنبي دلالة علي السخط علي الحظوظ ، والنقمة عليها ، حين يري مواهبه وملكاته تزيد علي مواهب كافور(في نظره هو) ولكنه لم يوت حظه) (١)

ونحن وإن كنا قد وقفنا طويلا عند هذا الخلق في المتنبي وأطنبنا القول حتي قاربنا من الإملال ، فماذاك إلا لأن صفة الغرور فيه، قد طبعته بطابعها ، واخترمت عمره كله فلم يتركها لحظة ، ولم تزايله طرفة عين ، عذبته ثم هلك بسببها ، وإن كانت قد أفادته كثيرا في إبداعه الشعري ، وفيما قدم من فن جال به في اغراضه المتنوعة لا سيما الحكم التي جاءت عنده إثر تجربة ، بعيدة عن جفاف الفكرة وتحديد المنطق فقد أملتها عاطفة صادقة ، فكانت لها قوة مؤثرة في وجدان المتلقي ، وقدرة تدفعه إلي التفكير المتأني ، والتأمل العميق ، فهي منتزعة من دنيا الرجل ومن تجاربه يخرج بها من حدود الفردية الذاتية التي تعنيه وحده ، إلي العمومية المطلقة ليشترك معه الناس جميعا في الإحساس بها وتصديق ما يقول ، والإذعان له بالتفوق ، فهذه الحكم تضفي عليه صفة الفيلسوف ، ولعل ذلك يرضي غروره فقد غدا ممتازا في دنيا الفكر والفن بعد أن عجز عن تحقيق هذا الامتياز في سياسة الناس وقيادتهم . ذلك أرضي المتنبي واستكان عنده ، فأكثر من قول الحكم ، أوشاعت الحكمة في شعره إلي الحد الذي لا نتمكن معه في هذا البحث الموجز من إحصائها جميعا أو الإلمام بأكثرها وحسبنا أن نقف عند البعض لنكتشف فيه أثر التجربة ونبض

(١) د/ أحمد بدوي ـ من النقد والأدب / ٧٠

الوجدان .

فهو يقول من قصيدة يمدح بها (أبا الحسين علي بن أحمد المري الخراساني) :

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محاربٍ لا ينام
ليس عزما ما مرّض المرء فيه ليس هما ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذي ورؤية جانيـ ـه غذاء تضوي به الأجسام
ذل يغبظ الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام
كل حلم أتي بغير اقتدار حجة لاجيء إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه مالجرح بميتٍ إيلام (١)

بهذا افتتح الشاعر قصيدة المدح ، وبهذا أيضا خالف المألوف المعتاد عند شعراء العرب حين يفتتحون قصائدهم بالغزل لا سيما شعر المديح ، والشاعر ما خالفهم هنا إلا لأنه يلملم جراح النفس التي نزفت كثيرا عند بدر بن عمار (في طبرية) حين تكاتف الحاسدون الذي هالهم أن يحقق المتنبي ، في بلاط الأمير كل هذا التقارب والامتياز ، فلم يهنألهم بال حتي نجحوا في إقصائه مغضوبا عليه ، مشيعا باللعنات ، ولم يكن يعرف كل هذا الكيد الخبيث الذي ووجه به في بلاط الأمير ،فزعزعوا كبرياءه ، وأصابوه في كرامته بندوب غائرة ، نالت منه لبعض الوقت ، ولكنه سريعا ما استرد كل ما ضاع منه ، وعاوده غروره القديم ، ولكن بعد أن اكتسب تجربة ردت إليه الاتزان ، وفرضت عليه أن يكون متأنيا في تفكيره متأنيا فيما يقول ، فهو قد عرف أنه لا يحق لأحد أن يفخر بشيء إلا إذا ،

(١) الديوان المجلد الأول ٣٢٦ ..

كان آمنا من الضيم وانمذلة بحيث تكون قوته قد صانته وحفظته فلا يقدر أحد علي خدش كرامته فيدرك مبتغاه أو يظل محاربا دونه لا يعرف النوم حتي يحققه أو يموت ، فالإنسان الذي يعجز عن الوصول إلي هدفه أو يمنعه عائق عن نيله إنسان بلا عزيمة ، خلا من الهمة التي تعينه وتدنيه من وطره .

وهذان البيتان وإن كانت الفردية قد استكنت فيهما ، فهي لا تكاد تلمح إلا لمحا خاطفا إلا أنها بدت أكثر وضوحا وإعلانا فيما تلا ذلك ، فاحتماله للأذي عند بدر ، مع مشاهدته للجاني أو للجناه أهزلت جسده وأوشكت أن تودي بحياته ، وهو وإن كان محسودا علي ما فيه من قرب واستمتاع باغداق الأمير وعطاياه ، إلا أن الذين يحسدونه لا يتعمقون المأساة التي يعيش في داخلها أو تعيش في وجدانه ، خدعهم الظاهر فلم يلتفتوا إلي الخبيء المستور ، وظنوه منعما في حين أنه يعيش ذليلا ، فقد ما هو أغلى من العطاء والنفوذ فقد العزة والسلامة النفسية ، فأولئك الذين يتمنون أن يسلبوه ما هو فيه ، ويأخذوا مكانه ، إنهم أكثر منه ذلة ، لأن أمنيتهم أن يستقروا في قاع الذل ولا يطلب الذل ويتنعم فيه إلا ذليل حقير .

نجح الذين أفسدوا ما بينه وبين بدر ولم يستطع إفساد ما خططوا له في بلاط الأمير لأنه أضعف من مجابهتهم . ومع ذلك زعم لنفسه أو زعم لغيره أنه حليم لا يواجه الشر بالشر ، وإنما سوف يصفح ويعفو مع أنه لا يقوى علي غير ذلك ولا يملكه ، فالحلم إذن حجة كاذبة يلجأ إليها اللئام ليداروا بها ضعفهم ويظهروا من

خلالها كرما مزيفا ·

أما البيت الأخير فإنه يفصح علي ما يبدو عن صفة غالبة في المتنبي لا يستطيع دحضها مهما أبدى من إدعاء للعزة والكرامة ، فهو تعرض كثيرا للهوان والإساءة وفي كل مرة يشعر بالخزي والعار وبما هو أقسي من الخزي والعار ، حين يسرع إلي أمير من الأمراء يتوهم عنده بلوغ المراد ، ثم يرتد من عنده مرزءا فيما صبا إليه ، مطرودا مهانا، ولا يتوب وإنما يعاود المحاولة ليعود معه خزيه وعاره ، وهكذا مات جرحه ولم يستشعر الآلام ·

وهكذا بدأ الشاعر مدحته بغير ما ترده الشعراء ، وإنما لفظ من صدره وقدة نار أوشكت أن تقضي عليه ، ملأته همّا وغيظا وحنقا وملأته سخطا علي الحياة وعلي الناس ، فهو متوجع برم ، ولكنه مع ذلك يريد أن يحافظ علي كبريائه المهين ، وأن يلملم ما تبعثر من كرامة كان يريد لها أن تصان ، فحطمها بدر ومن معه ، ووجد أنه لا يقوي علي الفخر · وهذا الأنين الضجر يقطع أنفاسه ، فجذب الناس معه يتأملون ثم يئتون معه ·

أرأيت كيف حوّل مأساته الي مجموعة من الحكم يتواري خلفها ضعفه وذلته حتي لا يشمت فيه كارهوه والشانئون وما أكثرهم ،وحاول أن يخدعنا عن نفسه بهذه القضايا العامة التي صاغها في أبياته ليظهر بها التفوق في الفكر العميق في فلسفة الحياة · فجاءت ملتصقة به تمام الالتصاق تكشف عن ملامحه لأنها تجربته الخاصة ووجيعته المفردة ، ومهما يكن من شيء فذلك ليس معيبا من المتنبي وإنما هي

عبقرية جعلته في الشعراء من الخالدين .

ولو كان المتنبي استسلم للمحنة ، واعترف بالخيبة ، ويئس من تحقيق الأمل ، لعاش شاعرا كغيره من الشعراء المداحين الذين يلتمسون الرزق والرزق الموسع فيه عند الأمراء ، ويلتمسونه كذلك بما حباهم الله من جميل القول ورقيق النغم الذي يطرب فيدفع الأمراء للعطاء السخي دفعا فيعيشون في لذة وسعادة وهناء .

ولكن المتنبي لم يفعل ذلك ، لأنه لا يستطيع الحياة بغير هذه المخاطر ، ولا يملك العيش إلا بين رضا الامراء وغضبهم ، والا بين أمل مرجو وخيبة مرة تهصيرقلبه هصرا فيئن ليخرج لنا فنا رائعا ، وحكما تقدم لنا التجربة والمتاع .

حتي هذا البيت الذي انتزعه الناس من بين قصيدة طويلة قالها المتنبي في مدح (علي بن أحمد بن عامر الانطاكي) والذي شهر بينهم وتداولوه ، ومن كثرة ما لاكته ألسنتهم غدا غير مجهول علي أحد ذلك البيت جاء إثر تجربة وهو :-

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر (١)

كما تري في البيت زهد واقتصاد ، ورغبة عن التهالك علي جمع المال ودعوة عاقل يزجيها إلي الناس جميعا ، ينهاهم عن أن يفرغ المرء حياته لجمع المال ، ويصرف ساعاته كلها لكي تتضخم الثروة ،يفعل ذلك خوفا من شبح الفقر الذي يطارده ، فلكي ينجو من براثنه يكثر ماله ولا ينفق منه في ضروراته شيئا ، فهو كالفقير المحروم الذي لا

(١) الديوان المجلد الأول / ٣٧٠

يجد ما يستوفي به ضروراته فكلاهما محروم .

هذه النظرة العميقة المتأنية ، التي جعلت المتنبي أكثر وعيا بالحياة ، وأكثر إدراكا لدور المال فيها ، فهو ليس للجمع وإنما لدفع الحاجة ، لا ينبغي أن يخدعنا المتنبي عن نفسه بهذه الدعوة ولا أن يموه علينا حقيقته التي عرفناها عنه ، لمجرد أن يفصح عن هذه النظرة الجديدة ، فنظنه قد كف عن التهافت علي جمع المال وإراقة ماء وجهه في سبيل تحصيله . لا ينبغي أن تخدعنا هذه النظرة أو يخدعنا المتنبي عن نفسه ، فهو مازال يلهث خلف آماله تلك العراض ، التي ولدت معه ، وعاشت معه ، تعرضه للحرج ولأكثر من الحرج ، للهلاك أحيانا إلي أن مات بها ...

فلو نظرنا في أبياته الأولي التي افتتح بها قصيدة المدح هذه لوجدناه يقول : (١)

أُطَاعِن خيلا من فوارسها الدهر وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر
وأشجع مني كل يوم سلامتي وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
تمرست بالآفات حتي تركتها تقول: أمات الموت ، أم ذعر الذعر؟
وأقدمت إقدام الأُتي كأن لي سوي مهجتي أوكان لي عندها وتر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق : جاران دارهما العمر

فهذه بداية أسرف الشاعر فيها الحديث عن نفسه ، وليس الأمر قاصرا علي هذه الأبيات فقد استمر الشاعر بمتاح من داخله أفكارا ومشاعر ، كانت قد أرقته طويلا ، بعد أن آبت نفسه الموزعة داخل

(١) المرجع السابق / ٣٦٩

القلق والخوف اللذين أسلماه إلي الهرب والتخفي ، فهو قد كـــان مشردا يتنقل من البادية خائفا من السلطان ، لا يستطيع أن يدنـــو من أرض الإخشيديين ، وقد كان بينه وبينهم ما انتهي به الي سجـن حمص ، وقد كان منذ أسابيع يمدح عدوهم بدر بن عمار ،ولايستطيع أن يدنوا من أرض ابن رائق في الشام وأعالي الفرات وهو طريـــد (بدر) ، وبدر كما رأيت أثير عند ابن رائق مقرب إليه ، فليـــس له اذن أن يهيم في البادية مخفيـا نفسه علي البدو، وأن يستتر فـــي الحاضرة إن ألم بها منكرا نفسه علي الحضـر ، قد لفظته الأرض ، وضاقت به الدنيا ، وهو يصور لنا هذا أجمل تصوير وأووعه ، كمـــا يصور لنا سخطه علي الذين جنوا عليه هذه المحنة الثانية) [(١)] وذلـك في رائيته التي يقول فيها :ـ

عذ يري من عذار ي من أمورٍ سكنّ جوانحي بـدل الخـــــدور
ومتبسمات هيجاواتِ عصـــرِ عن الأسياف ليس عن الثغـــــور
ركبت مشمرا قدمي إليهـــا وكل عُذافِر قـلق الضفـــــــور
أوانـا في بيوت البـدو رحلي وآونة عـــلي قتـــد البعيــــــر
أُعَرِّض للرماح الصم نحـــري وأنصب حُـــرَّ وجهـي للهجيــــر
وأسري في ظلام الليل وحدي كأنيَ منـــه فـــي قمر منيـر (٢)

فالعذارى من الأمور هي الخطوب العظيمة التي لم يسبق العهـــد بمثلها ، هذه الخطوب والمصائب قد سكنت صدره وأرهقته ، تبسمت الحروب عن بريق السيوف ، كان في كل تجواله كأنه يسعي إليهــا

---

(١) د/ طه حسين ـ مع المتنبي / ١٤٣
(٢) الديوان ـ المجلد الأول / ٣٣٣

فهي تواجهه وتهدده في كل فجاج يسلكه ، سواء كان يركب قدميه أو يستخدم الإبل الشديدة العظيمة التي انهكها السير وأضمرتها الرحلة حتي أن النسع التي تشد بها الرحال قد اتسع وكان في قلقه يضرب في الأرض ، فارا من المجهول الذي يتوعده فهو لا ينام هانئا أبدا ، مرة في بيت بدوي ومرة علي ظهر بعيره ، وهكذا تمضي به الحياة ، يتوقع أن تصيبه الرماح في نحره علي غير معرفة بمأتاها ، فإن نجا في نهاره فالهاجرة تشوي وجهه ، فإذا جنه الليل فإنه لا يقلع عن المسير بل يضرب في طرقات الصحراء مع تراكم الظلمة علي غير خوف من ضلالة ، فهو خبير بهذه الطرق .

أرأيت ضياعا أقسي من هذا الضياع ، إنه يستجدي الحياة من القدر ، ويخشي أن يفاجأه الموت ويغتاله الردى في كل دبة قدم يخطوها علي الأرض ، فعاش قلقا متوجسا ، هان عنده كل شيء من متاع الدنيا ، يريد أن يفتدي نفسه ويشريها فتنازل عن كل نفيس لذا قال :

وكف لا تنازع من أتاني ينازعني ،سوي شرفي وخيري (١)

مازال به رمق يتشبث بالكبرياء ، وينازع في الشرف ، ويدفع من يريد استلابه ، فهذه المحنة التي يواجهها كانت من القسوة بحيث أوهت جلده ، وضعضعت كل شيء فيه فلم يعد قادرا علي الصمود فتسربت من بين أصابعه آماله في الثراء وفي السلطان ، فقال بيته المشهور الذي ينعي فيه علي المتكالبين علي جمع المال ، وجعلهم

---

(١) الديوان ـ المجلد الأول / ٣٣٣

يعيشون في فقر مع ما هم فيه من ثراء وحذرنا أن نكون مثلهم بعد أن أتّب نفسه التي أوردته موارد العطب في سبيل طمعه وطموحه فلمَ يجمع المال ؟ ووجوده مهدد بالفناء ...

وهكذا خرجت الحكمة من عباءة التجربة ، التي أكسبته الكثير من الأناة والروية ، فيما كان وفيما ينبغي أن يكون ، فماذا صنع المتنبي أثناء هذا الهرب ؟ ولمَ يلبث مستخفيا ؟ لم يصنع شيئا ذا خطر فيما يظهر ، وانما كان يلتمس النجاة ، فإذا ظفر بها التمس الأمن ، وكان في أثناء ذلك كثير الرجوع الي نفسه ، ممعن التفكير فيما أمتلأت حياته به من البؤس والشدة والشقاء (١)

فلم يكد يمضي عام أو بعد عام ، حتي آمنه الدهر بعد فزع، وأقره بعد طراد وتغرب ، فقد قتل ابن رائق ، وأصبح يستطيع ان يتنفس في شيء من الحرية و لطمأنينة ، حتي استقر به المطاف عند علي بن أحمد بن عامر الانداكي ، ومدحه بقصيدته التي مطلعها :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر وحيدا ومأقولي كذا ومعي الصبر

سالفة الذكر ، والتي عرض فيها لحاله وما كان فيه ، وصور تعاسته وقلقه كأبلغ ما يكون التصوير وأدقه ، فقد عاني من التجربة الحية التي كان يعيشها في الضياع والترقب الفزع فانحرف بآماله إلي طلب السلامة فحسب ، فإذا مضيت في قراءتها رأيت الفخر الجزل يصور غرورا وفنونا أكثر مما يصور شجاعة وحزما) (٢)

---

(١) د/ طه حسين ـ مع المتنبي صـ ١٤٤
(٢) المرجع السابقة / ١٤٦

وهكذا يرجع بنا المتنبي الي سالف عهده ، غرور وصلف ، ورغبة جموح في تحقيق ما يصبو إليه ، حتي يلتقي بمحمد الإخشيد في دمشق ويأخذ جوائزه ، وتأخذه الأماني لتحلق به عن أرض الواقع ، كدأبه دائما ، فقد ظن أنه أصبح قريبا من أمله الأكبر ، ولكن القدر لم يمهله ليستمتع بأحلامه طويلا فقد مات الإخشيد ، فرثاه بهذه الأبيات :-

هو الزمان مشت بالذي جمعا في كل يوم تري من صرفه بدعا
إن شئت قمت أسفا أوفابق مضطربا قدحل ماكنت تخشاه وقدوقعا
لوكان مُمتنعٌ تغنيه منعته لم يصنع الدهر بالإخشيدما صنعا (١)

ومن هذا ندرك أن المتنبي لم يكف عن مطالبه ، وأيضا لم تهادنه الأيام ، فعاش يصطرع معها ، آنا تلين له ، فيستكين إليها راضيا بعطاياها ، مغتبطا بحياة الدعة والقناعة ، فإذا عربدت في صدره الأحلام ، عادت تناوشه لتذيقه الصاب ، وتجرعة المر، ليقول لنا شعرا عذبا رائقا ، فيه روعة الإبداع ، واقتدار العبقرية ، في كل الأغراض .. ونحن حين أفردنا بحثنا عن الحكمة في شعره فليس لأنها تفوقت علي الأغراض عنده ، وانما لأن النقاد قد نظروا إلي الحكمة في الشعر بعامة ، نظرة اتهام ، فقد أقصوها عن الفن ، لأنها كما يقولون : تحمل فكرا خالصا ، فيه جمود الفلسفة وجفافها ، والفن يحتاج الي الوجدان ليرقفه ويهذبه ، ويجعله سائغا مقبولا عند المتلقي ، وهذا الحكم لا ينبغي أن يوخذ علي إطلاقه فليست كل حكمة خلت من وجدان ، وها نحن قد أوضحنا أن حكمية

(١) الصبح المنبي / ١١٢

المتنبي المبثوثة كثيرا في شعره كانت نتيجة تجربة عاشها وعانى منها ، لذا جاءت صدي لوجدان مرهف تترك الأحداث فيه بصماتها الغائرة ، فأعانت الشعر علي أداء وظيفته الأخلاقية ، إن الشعر في ادائه للوظيفة الأخلاقية خير من الحياة ، لأنه يصورها بطريقة تغري القارئ بمحاولة تحقيقها في الوجود ، وبذلك يكون الشعر أقوى، أثرا من حيث التعليم الأخلاقي من الفلسفة والتاريخ) [١] ونحن إذا ذهبنا نستقصي حكمه كان علينا أن نعرض شعره كله .. وذلك فوق طاقة الإمكان .

وأخبرا إليك هذه الحكمة التي جاءت في قصيدة مدح بها أبا شجاع فاتك ، حين قدم من الفيوم ، فوصل ابا الطيب ، وحمل إليه هدية قيمتها ألف دينار ، فقال في افتتاح هذه القصيدة :ـ

لا خيل عندك تهديها ولا المال فليسعِد النطق إن لم تسعد الحال [٢]

والتي جاء فيها هذا البيت :ـ

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال (٣)

لو كان مقتنعا بهذا موءمنا بما يقول لكف عن المحاولة ولأغمد سيفه الذي ظل يحارب به الزمان ، ولاستكان لما هو فيه من نعيم وترف ، وخيرا فعل حينما عاش عمره كله محاربا دون آماله ، فقد خلف لنا بذلك فنا خالدا خلود الدهر ، وحكمة هي دليل معاناته الذي ظل قلبه ينبض بها ، وستبقي لنا نحن لتعطفنا علي الشاعر حين نصغي إلي دقات هذا القلب المعذب ...

دكتور
عبداللاه محمود حسن محروس
استاذ مساعد الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

---

(١) مناهج النقدالأدبي بين النظرية والتطبيق /١٢١ ـ ترجمة د/ محمد يوسف نجم . (٢) الديوان ـ المجلد الثاني / ٣٦٥
(٣) المرجع السابق / ٣٧٢